

شعراء رسول الله صلى الله عليه وسلم

كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيُّ

بقلم: يحيى الجبوري

لرسول الله صلى الله عليه وسلم شعراء كثار يتفاوت حظهم من الشهرة والتقدير حسب صلتهم برسول الله وجهدهم في سبيل الدين الاسلامي ، فنذا أن هاجر الرسول الكريم إلى المدينة وبدأ الصراع العلني بين رسول الله وأصحابه المهاجرين وأنصاره في المدينة ، وبين قريش في مكة ومن وإلى قريشاً من يهود منافقين وأعراب مشركين وغير أعراب متمسكين بجاهليتهم النكراء واعتقاداتهم الضالة وحميتهم العصبية ، سواء كان ذلك في مكة أو الطائف أو القرى اليهودية منذ ذلك الحين اتخذ الشعر سبيله في الحرب بين الايمان والشرك ، فوقف شعراء الرسول يبشرون بالدعوة ويهاجون المشركين في مكة وغير مكة ، ويذبون عن أعراض المسلمين . وقد برز في المدينة ثلاثة نفر : هم شعراء المسلمين أول الدعوة : حسان ابن ثابت ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة .

ثم تكاثر شعراء المسلمين كلما ثبتت للاسلام قدم ، وكلما انتشرت كلمة الله ، فدخل في دين الله شعراء البادية ، فكان كعب بن زهير صاحب البردة من شعراء المسلمين ، وكذلك كان العباس بن مرداس ، وبجير بن زهير والنابعة الجعدي وغيرهم كثير .

ونحاول هنا أن نرسم صورة مجملة عامة لشاعر الرسول : كعب بن مالك الأنصاري
مؤكدين على مواقفه في الاسلام وجهده في سبيل الله .

وكعب بن مالك بن أبي كعب الخزرجي الأنصاري السلمي الذي يكنى أبا عبد الله أو أبا
عبد الرحمن ، من سداة الناس ووجود قومه وذوي السابقة في الاسلام ، كانت أول صلة
كعب بالاسلام يوم العقبة الثانية حيث وفد مع السبعين من أهل المدينة على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، الذين بايعوه على أن يمنعوه ما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم^(١) .
وحين هاجر الرسول إلى المدينة وآخى بين المهاجرين والأنصار ، آخى الرسول بين
كعب بن مالك وبين طلحة بن عبيد الله . كان كعب مؤمناً قوياً باليمان تقياً شديداً التقى
وكان أثيراً عند رسول الله يحبه ويدعوه بالخير ويشجعه على جيد الشعر ، يروى أنه
نهض إلى الرسول يستأذنه في هجاء أبي سفيان حين جاء الخبر بهجائه رسول الله ، فقال كعب
إئذن لي - . فقال : أنت الذي تقول : « همت » قال نعم يا رسول الله أنا الذي أقول :

همت سخينة أن تغالب ربها وليغلبن مغالب الغلاب

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أما إن الله لم ينس ذلك لك »^(٢) وكان رسول
الله يقوّم من شعر كعب ويوجهه فقد روى أنه خرج على الناس وفيهم كعب بن مالك ينشد ،
فلما رآه كأنه انقبض فقال : ما كنتم فيه ؟ فقال كعب كنت أنشد فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : أنشد فأنشد حتى آتى على قوله :

مجالدنا عن جذمنا كل نخمة مذبذبة فيها القوانس تلمع

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أياصلح أن تقول : مجالدنا عن ديننا ؟ فقال كعب

(١) السيرة ق ١ ص ٤٤١ — ٤٤٣ ، وجهرة أنساب العرب ص ٣١١ .

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ٢٨ .

نعم ^(١) فكان كعب ينشد كذلك وكان الرسول الكريم كثيراً ما يستنشد كعباً فينشده فيقول الرسول : لهذا أشد عليهم من وقع النبل ^(٢) ومن تشجيع الرسول لكعب أنه سأله يوماً فقال : يا رسول الله : ما ذا ترى في الشعر ؟ فقال الرسول الكريم : « المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه » . ^(٣) وكان عليه السلام يثنى على شعر كعب فيقول : « إنك لحسن الشعر » ^(٤) .

وكانت صلة كعب بالرسول قوية متينة فهو قريب منه يسمع الحديث فيحفظه فيحدث به فهو لذلك معدود من رواة الحديث ^(٥) . ولم يكن كعب ورعاً مؤمناً وحسب ، بل كان فارساً من فرسان المسلمين فما كان كصاحبه حسان بن ثابت الذي يشارك المسلمين باللسان ثم إذا قامت الحرب التجأ إلى أطمه (فارغ) مع الصبيان والنسوة ^(٦) ، بل كان شجاعاً مقداماً يقول القول مقروناً بالفعل فقد كان له صبر مشهود وبلاء عظيم يوم أحد ، حتى أنه جرح أحد عشر جرحاً . وكان من اكرام رسول الله له أن لبس لأمته ولبس كعب لأمة الرسول صلى الله عليه وسلم وكانت صفراء .

وقد شارك كعب في أكثر الحروب الإسلامية ^(٧) إلا أنه تخلف عن غزوة تبوك ، وكان لهذا أسوأ الأثر في نفسه ، فحزن حزناً شديداً ، روى ابن هشام في السيرة قال : « وقد كان تخلف عنه رهط من المنافقين ، وتخلف أولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فقال رسول الله

(١) السيرة ق ٢ ص ١٣٦ . (٢) الاغانى ج ١٥ ص ٢٩ ط سامي .

(٣) الاغانى ج ١٥ ص ٢٨ . (٤) الاستيعاب في معرفة الاصحاب ق ٣ ص ١٣٢٥ .

(٥) الاغانى ١٥/٦٦ .

(٦) بنظر حديث صفية بنت عبد المطلب عن حسان يوم الخندق في الاغانى ١٦٥/٤ .

(٧) الاستيعاب ١/٢٢٢ وقد اختلف في حضوره يوم بدر .

صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لا تكلمن أحداً من هؤلاء الثلاثة » ^(١) . ومكث كعب لا يكلمه أحد خمسين يوماً ، عانى فيها كثيراً من الآلام . وقد دفعه قومه أن يتوسل بعذر لدى رسول الله ، قالوا : « لو اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض ما يعتذر به الناس عذرک » فقال : « اني لأصنعهم لساناً وأقدرهم على ذلك ، ولكن والله لا أعتذر اليه بكذب وان عذرتني فيطلع الله عليه » ^(٢) ، ومكث كذلك حتى نزلت فيهم التوبة في قوله تعالى : « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ان لا ملجأ من الله إلا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم » ^(٣) .

لقد ناضل كعب بسيفه ولسانه مع من ناضل من شعراء المساهين ، وصور الأحداث بروح إسلامية ظاهرة التأثير بالدين الاسلامي الحنيف ، ففي بدر يجيب على قصيدة ضرار بن الخطاب فيقول ^(٤) :

عجبت لأمر الله والله قادر	على ما أراد ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقي معشرا	بغوا وسبيل البغي بالناس جائر

* * *

وفينا رسول الله والأوس حوله	له معقل منهم عزيز وناصر
وجمع بني النجار تحت لوائه	يمشون في المأذي والنقع ثائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد	لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لأرب غيره	وإن رسول الله بالحق ظاهر

(١) السيرة ق ٣١/٢ * ومغازي رسول الله ص ٣٤٤ .

(٢) طبقات الشعراء ص ١٨٥ وكذلك امتاع الاسماع ١/٥٤ — ٥٨٨ .

(٣) سورة التوبة آية ١١٨ .

(٤) السيرة ٢/١١٤ .

إلى أن يقول :

وكان رسول الله قد قال اقبلوا فولوا وقالوا أنما أنت ساحر
لأمر أراد الله أن يهلكوا به وليس لأمر حمّ الله زاجر

ويتضح في هذه القصيدة فهم كعب وتأثره بالمعنى العام للقرآن الكريم ، فقوله « إنما أنت ساحر » متأثر بقوله تعالى : « وقال الكافرون هذا ساحر كذاب » ^(١) وقوله : « وليس لأمر حمّ الله زاجر » متأثر بمعنى الآية الكريمة : « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له » ^(٢) أو قوله تعالى : « ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين » ^(٣) .

وقد روى له ابن اسحق شعراً في رثاء عبيدة بن الحارث الذي قطعت رجله في بدر ^(٤) وله كذلك شعر يخاطب فيه بعض أحياء العرب الذين قاتلوا المسلمين في بدر ^(٥) :

ألا هل آتى غسان في نأى دارها وأخبر شيء بالأمور عليهما
بأن قد رمتنا عن قسى عداوة معدّ معاً جهالة وحليمها
لأنا عبدنا الله لم نرج غيره رجاء الجنان إذ أتانا زعيمها
نبي له في قوميه أرث عزة واعراق صدق هذبها أرومها

إلى آخر ما يقول : وله في هذا اليوم — يوم بدر — قطعة يوعد فيها أبا سفيان ، بأن قريشاً ستذل وتطلع عليها خيول المسلمين من (كداء) بنصر من عند الله ^(٦) :

* * *

فما ظفرت فوارسكم ببدر وما رجعوا إليكم بالسواء
فلا تعجل أبا سفيان وأرقب جياذ الخيل تطلع من كداء
بنصر الله روح القدس فيها وميكال فيا طيب الملاء

(٢) سورة الرعد آية ١١ .

(١) سورة ص آية ٤ .

(٤) السيرة ٢/٢٤ .

(٣) سورة الانعام آية ١١٧ .

(٦) نفس المصدر ص ٢٥ - ٢٦ .

(٥) السيرة ٢/٢٥ .

وكعب هنا يسبق حسناً في نبوءته بفتح مكة والطلوع على قریش من كداء ، ولعل المسلمين كانوا منذ البداية يمنون النفس بفتح مكة وإخضاع أهلها ، ويعدون لهم العدة ، فيتوعدون قریشاً ورؤيسها أبا سفيان ، فلا غرو أن يذكر ذلك كعب ويذكر كذلك حسان هذه الأمانى ^(١) .

أما في أحد ، فشعر كعب أكثر منه في بدر ، فله قصيدة طويلة ذكر ابن اسحق انه اجاب بها هبيرة بن ابي وهب ، ولم يرد له ذكر فيها ، وورد اسم عبد الله بن الزبيري ، حيث كان قد فخر عليه عبد الله ، ومطلع القصيدة هو ^(٢) :

الا هل آتى غسان غنا ودونهم من الأرض خرق سيره متنعنم
ويفخر فيها بقومـه ويذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانته في نفوسهم ،
وطاعة امره :

مذبذبة فيها القوانس تلمع	مجالدنا عن ديننا كل نخمة
إذا قال فينا القول لا نتطلع	وفينا رسول الله نتبع امره
ينزل من جو السماء ويرفع	تدلى عليه الروح من عند ربه
إذا ما اشتهى انا نطيع ونسمع	نشاوره فيما نريد وقصرنا
ذروا عنكم هول المنيات واطمعوا	وقال رسول الله لما بدوا لنا
الى ملك يحيا لديه ويرجع	وكونوا كمن يشرى الحياة تقرباً
على الله ان الأمر لله اجمع	ولكن خذوا اسيا فكم وتوكلوا

والقصيدة من جياذ القصائد العربية وقد حفلت بالمعاني الاسلامية الرفيعة ، وقد

(١) وذلك في قصيدة حسان يوم الفتح حيث يقول :

عدمنا خيلنا ان لم تروها تنير النعم موعدها كداء

ديوان حسان ص ٦ - ١٠ وانظر السيرة ٤٢١/٢ - ٤٢٤ .

(٢) السيرة ١٤٢/٢ - ١٣٥ .

استطاع كعب ان يمثل هول المعركة ، وما اصاب المسلمين من بلاء ، واعتذر لذلك بقلة
عدد المسلمين مع كثرة ما حشد الاعداء :

فجئنا الى موج من البحر وسطه
ثلاثة آلاف ونحن نصية
نغاورهم تجري المنية بيننا
ويخاطب فيها ابن الزبعرى :

نفرت على ابن الزبعرى وقدرى
فسل عنك في عليا معد وغيرها
ومن هو لم تترك له الحرب مفخرا
ومن خير ما قال كعب في احد ، رثاؤه لحمزة ومن سقط شهيداً من المسلمين قال ^(١) :

نشجت وهل لك من منشج
تذكر قوم اتاني لهم
فقلبك من ذكرهم خافق
وقتلهم في جنات النعيم

ويصف غدر وحشي بحمزة ، وكيف صرعه بحربة لأمعة كالشهاب :

فكلهم مات حرّ البلاء
كحمزة لما وفى صادقاً
فلاقاه عبد بني نوفل
على ملة الله لم يخرج
بذي هبة صارم سلجج
يبرر كالجمل الادعج

ولكعب في رثاء حمزة اكثر من قصيدة وكلها صادقة اللوعة واضحة الحزن شديدة

التحسر .

اما في الخندق ، فقد وصف المشركين وتألبهم على دين الله وكيف تمسك المسلمون

(١) نفس المصدر ١٣٨/٢ — ١٣٩ .

بدينهم فلم يغيروا ولم يبدلوا ، قال (١) :

لقد علم الاحزاب حين تألبوا
اضاميم من قيس بن عيلان اصفقت
يزودوننا عن ديننا ونذودهم
اذا غايظونا في مقام اعاننا
وذلك حفظ الله فينا وفضله
هدانا لدين الحق واختاره لنا
علينا وراموا ديننا ما نودع
وخندق لم يدروا بما هو واقع
عن الكفر والرحمن راء وسامع
على غيظهم نصر من الله واسع
علينا ومن لم يحفظ الله ضائع
ولله فوق الصانعين صنائع

والملاحظ هنا ان المعنى الديني بدأ يتضح اكثر ، وفي هذا الشعر جانب من التعليل
والمحاجة والتوكل على الله فإنه : (ومن لم يحفظ الله ضائع) .

ويبكي كعب قتلى مؤتة بقصيدة شجية صادقة الحزن (٢) : فيها تصوير دقيق لآلامه
النفسية وخلجاته وقد مزج كل ذلك بنفس ديني مؤمن :

نام العيون ودمع عينك يهمل
في ليلة ردت عليّ همومها
واعتادني حزن فبت كأنني
وكأنما بين الجوانح والحشى
وجدنا على النفر الذين تتابعوا
صلى الأله عليهم من فتية
سحاً كما وكف الطباب المخضل
طوراً احزن وتارة اتململ
بينات نعش والسمك موكل
مما تأوبني شهاب مدخل
يوماً بمؤتة اسندوا لم ينقلوا
وسقى عظامهم الغمام المسبل

اما بعد النصر بفتح مكة ، فقد قال كعب قصيدته بعد الفراغ من حنين حين اجمع
رسول الله ﷺ السير الى الطائف (٣) :

(١) السيرة ٢/٢٦٣ .

(٢) المصدر السابق ٢/٣٨٥ .

(٣) السيرة ٢/٤٧٩ - ٤٨٠ والحجاسة - ابن الشجري ص ٤٣ وهمازي الرسول ص ٢٣٩ .

قضيـنا من تهامة كل ريب وخير ثم اجمنا السيـوفا
نـجـر هـا ولو نطقـت لقاـت قواطعـهن دوسـا او ثقيـفا
وذكر ابن سيرين قال : « فبلغني ان دوسا انما اسلمت فرقاً من قول كعب (قضيـنا
من تهامة ..) فقالت دوس : انطلقوا فخذوا لأنفسكم ، لا ينزل بكم ما نزل بثقيف » (١)
وفي هذه القصيدة يذكر رسول الله ﷺ ويدعو الناس الى الدخول في دين الله ليكونوا
منهم او ان يحكموا السيف في رقابهم ان تمسكوا بضلالاتهم :

وانا قد اتيناهم بزحف يحيط بسور حصنهم صفوفا
رئيسهم النبي وكان صلبا نقي القلب مصطبراً عزوفا
رشيد الأمر ذو حكم وعلم وحلم لم يكن نزقا خفيفا
نطيع نبينا ونطيع رباً هو الرحمن كان بنا رؤوفا
فان تلقوا اليـنا السلم نقبل ونجعلكم لنا عضداً وريفا
وان تأبوا نجاهدكم ونصبر ولا يك امرنا رعشاً ضعيفا
نجالد ما بقينا او تنيبوا الى الاسلام اذعاناً مضيفا

الى آخر هذه القصيدة التي تحافظ على هذا البناء السليم والنسج المحكم الجميل والروح
الاسلامي الظاهر .

وبعد مصاب المسلمين بوفاة رسول الله ﷺ يقف كعب ليرثي النبي مهـداً ، بروح المؤمن
الذي وعى مفاهيم الدين الحنيف ، وملاً الايمان قلبه فهو يبكيه دون يأس أو جزع ، بل
يذكر فضل الله على المؤمنين ، إذ نجاهم من ظلام ولظى (٢) ؟

يا عين فابكي بدمع ذرى لخير البرية والمصطفى

(١) الاستيعاب ١/ ٢١٣ .

(٢) ابن سعد — الطبقات الكبير ق ٢ ج ٢ ص ٩٢ — ٩٣ .

على خير من حملت ناقة واتقى البرية عند التقى

* * *

نخص بما كان من فضله وكان سراجاً لنا في الدجى
وكان بشيراً لنا منذراً ونوراً لنا ضوءه قد أضاء
فانقذنا الله في نوره ونجى برحمته من لظى

وقد عاش كعب زمناً أدرك فيه الفتنة التي قامت ضد عثمان ، وقد وقف في ذلك على

مجلس قومه الأنصار ، يقرعهم لقعودهم عن نصرة خليفة المسلمين قال : (١)

من مبلغ الأنصار عني آية رسلا تقص عليهم التبيان
أن قد فعلتم فعلة مذكرة كست الفضوح وابدت الشنا
بقعودكم في داركم وأميركم تحشى ضواحي داره النيران
بيننا يرجى دفعكم عن داره ملئت حريقاً كابياً ودخاناً

الى آخر القصيدة التي يلوم فيها الأنصار الذين قعدوا عن دفع الشر والشغب . وكذلك

أدرك كعب الخلاف الذي نشب حول الخلافة بين علي ومعاوية ، فكان عثمانى الهوى منحرفاً
عن علي بن أبي طالب ، وقد خاطبه في أمر عثمان وقتله ظالماً .

وكانت وفاته في سنة خمسين — وقيل في ثلاث وخمسين — وهو ابن سبع وسبعين

وقد ذهب بصره (٢) .

رحم الله كعباً ، فقد جاهد في سبيل الله بلسانه وسيفه ، وكان فارساً من فرسان

المسلمين ، شديداً على الكافرين ، حريصاً على أن ينتشر الدين .

بجى الجبوري

(١) الأغاني ١٥-٢٧ ط سامي ، ٢٢٨/١٦ ط الدار .

(٢) الاستيعاب ٢٢٣/١ وخزانة الأدب ٢٠/١ ومعجم الشعراء ص ٢٢٩ .